الفصل السادس

الحضارة الإسلامية

الفصل السادس

الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية عمادها الشريعة الإسلامية منها تستمد معارفها ، وتصوراتها، ومقوماتها وسماتها ، وتتسم الشريعة أنها وسطية متوازنة فكما أن الله تعالى خلق الإنسان متوازنا ، والكون متوازنا فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ التوازن للإنسان والكون .

توازن الشريعة الإسلامية

والشريعة الإسلامية وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار ، وألهوا الأوثان والأحجار .

وهي وسط بين الذي يؤمنون بالعقل وحده مصدرا لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي و الإلهام ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات ، فالإسلام يؤمن بالعقل ويدعوه للنظر والتفكير ، وينكر عليه الجمود والتقليد ، ويخاطبه بالأوامر والنواهي ، ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود وهما : وجود الله تعالى ، وصدق دعوى النبوة ، ولكن يؤمن بالوحي مكملا للعقل ومعينا له فيما تضل فيه العقول وتختلف ، وما تغلب عليه الأهواء ، وهاديا له إلى ما ليس من تخصصه ولا هو في مقدوره من الغيبيات و السمعيات وطرائق التعبد لله تعالى .

فلا عجب أن جاء الإسلام – وهو دين الفطرة – نظاما وسطا عدلا لا يجور على الفرد لحساب المجتمع ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد " (١)

فأهم سمة إذن تميز الشريعة الإسلامية هي التوازن التي تعمل على حفظ كيان الإنسان : روحاً ، وعقلاً ، وقلباً ، وجسداً ، ونفساً . كما تحفظ على الكون نظامه أرضاً ، وسماءً ، وهواءً ، وأنهاراً ، ونباتاً ، وحيواناً ، جبالاً ، وبحاراً ....

فعناصر الكون خلقها تعالى متوازنة فيما بينها فلا تناقض فيها ، ولو كانت من عند غير الله لوجد الناس فيها اختلافا كثيرا .

قصة الخليقة في المفهوم الإسلامي

الله تعالى خلق السموات والأرض ومدهما بكل أسباب الحياة وسخرهما للإنسان

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية : ١٣)

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان : ٢٠)

فجعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا للإنسان ، وسخر له الفلك لتجري في البحر بأذنه ، وسخر له الأنهار ، وآتى الإنسان من كل ما سأل ، ولا يستطيع الإنسان مهما أوتي من علم أن يحصي نعم الله تعالى عليه .

﴿ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ

(١) لمزيد من التفصيل حول وسطية الإسلام الرجوع إلى " الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوي ، " ميزان الحق " للمؤلف .

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٢-٣٤)

وشاءت حكمة الله تعالى أن تكون كل هذه النعم في حالة توازن وتكامل فلا اضطراب ، ولا تناقض بينها .

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس : ٤٠)

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِى وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ (الحجر : ١٩ – ٢٠)

خلق آدم

وخلق الله تعالى آدم أبا البشر من طين وسواه بيديه .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (ص : ٧٥)

وشاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الأرض مسكن الإنسان ذلك الكائن الذي استخلفه الله فيها .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة :٣٠)

ولقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم ليقوم بهذه المهمة ، فخلقه تعالى بيده، وصوره فأحسن صورته ، وسخر له ما في الأرض .

﴿ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر : ٦٤)

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (التغابن : ٣)

ونفخ الله تعالى في جسد الإنسان الذي صوره في أحسن صورة من روحه .

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص :٧٢)

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة : ٧ –٩)

الأصل في الإنسان الإيمان

ولقد فطر الله تعالى الإنسان على الإيمان به وتوحيده ، وعدم الإشراك به شيئا وأخذ عليهم العهد .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

(الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣)

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم ، من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن اللّه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٣٠)

وتناقش بعض الصحابة في الغزوات حول أبناء المشركين وذريتهم أيقتلون كآبائهم المقاتلين ؟

فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فاشتد عليه، ثم قال: "ما بال أقوام يتناولون الذرية " ؟ فقال رجل: يا رسول اللّه أليسوا أبناء المشركين ، فقال: " إن

خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها "

(حديث صحيح أخرجه أحمد والنسائي)

فالأصل في الإنسان – أي إنسان – هو الإيمان أما الكفر والشرك فطارئان عليه سبب الموروثات المختلفة ، فالإيمان لا يحتاج إلى عمق فكر أو طول بحث إنما يحتاج أولا إلى نقاء فطرة ، وسلامة طبع . ولو تناسى الإنسان " كل ما علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خُلِق من ساعته ، ثم لينظر إلى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم إلا ما تهديه إليه مشاعره الظاهرة ، وإحساساته الباطنة ورنا ببصره إلى ما حوله وما بين يديه وخلفه فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله فكاد يصعق أمام هذا السكون المطلق ، فإذا جَنَّ عليه الليل وهو على تلك الحالة الساذجة ، ورأى أديم السماء قد تلوَّن بذلك اللون القاتم ، وتلألأت في أرجائه النجوم والكواكب ، وبرزت القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع ، وتبين أنه أمام وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطعه أمامها الإقرار بعجزه وضعفه والإذعان بحقارته وضئول شخصه ، واحتياجه المطلق لملجأ يلجأ إليه ، وموئل يعوِّل في النجاة عليه ، وفقر لقويٍّ يهبه من قوته ، ورحيم ينشر من إضافات رحمته .

هذا هو مبدأ التدين ، والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعلا ، وهو الدافع الذي دفع الأمم للتمسك بالأديان ، وهو بذاته الداعي لإرسال الله تعالى رسله تترى إلى الأمم بالهدى ودين الفطرة " (١)

ولم يكتف جل وعلا بالفطرة هادية للإنسان إلى سبل الرشاد بل ركَّب فيه العقل الذي يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، ويستخدمه في أداء رسالته

(١) محمد فريد وجدي ، مقدمة " المصحف المفسَّر " ص ١٠ دار الشعب

المكلف بها ، وركَّب فيه القلب الذي هو مستقر الاعتقاد والإيمان ، ومجمع الوجدان والمشاعر .

والعقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضا فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

فالله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً وجسداً .

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة : ١٣٨)

﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم : ٣٠)

والفطرة هى التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة فى أمثل صورة لها توازن بين و الجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

كما شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان مختارا وليس مسخرا كبقية المخلوقات التي " لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " (التحريم : ٦) لذا علم الله تعالى آدم الأسماء كلها ليكون أهلا للخلافة في الأرض ، فعلمه أسماء عناصر الكون وخصائصها ، كما علمه مكونات الإنسان وخصائصها "

قال مجاهد: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء ، وقال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس ، إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته، والصحيح أنه علمه أسماء الذوات، وأفعالها، مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما." (١)

(١) ابن كثير البداية والنهاية المجلد الأول ص ٧٨

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ٣١)

وبسبب هذا العلم الذي منحه الله تعالى آدم دون سائر المخلوقات لأنه الوحيد الذي أهله الله تعالى لتحمل هذه الأمانة أسجد لله الملائكة .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٣١)

وبالعلم الإلهي فضَّل الله تعالى الإنسان الذي يحمل هذا العلم ويعمل به على كثير ممن خلق تفضيلاً .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٠)

ولقد حصر الله تعالى مهمة الإنسان في هذه الأرض في أمور ثلاثة : إخلاص العبادة لله وفق ما شرع ، وتزكية نفسه ، وتعمير كونه بالعلم النافع والعمل الصالح على ألا يخل تعميره للكون بنظامه البديع وإلا أصبح إفساداً يعود عليه بالضرر .

﴿ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود : ٦١)

ولم يترك الله تعالى الأمم تتخبط خبط عشواء تحتكم لعقلها القاصر أو لأهوائها الجامحة إنما أرسل لكل أمة رسولا ليقضى بينهم بالحق والعدل .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾

فما من أمة من الأمم منذ الخليقة إلا وبعث الله تعالى فيها رسولاً يهديها .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(فاطر : ٢٤)

وأرسل الله تعالى مع رسله الشريعة والمنهاج .

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة : ٤٨)

والشريعة ما شرع الله لعباده من الدين ، أما المنهاج فهو الطريق المستمر، وهو النهج والمنهج ، أي البيِّن .

وأن من سمات الشريعة أنها متوازنة فيما بينها فلا تناقض فيها ، ولو كانت من عند غير الله لوجد الناس فيها اختلافاً كثيراً ، كما أنها متوازنة مع كيان الإنسان

" أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " (الملك : ١٤)

فشريعة الله هي ميزان العدل الإلهي الذي يجب على كل إنسان أن يزن به عمله: قولاً أو فعلاً فإن فعل ذلك فقد استقام أمر دينه ودنياه واستحق الجنة ورضوان الله .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥)

وشريعة الله تعالى هي القانون الذى يجب أن نحتكم إليه في تعاملنا مع الناس كل الناس .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الشعراء : ١٨٢)

كما أمر الله تعالى أن يكون ميزان العدل مطلقا لا يشمل الأقرباء دون الغرباء ، ولا الأغنياء دون الفقراء ، ولا الضعفاء دون الشرفاء ، إنما الكل متساوون أمام ميزان العدل الإلهى سواء بسواء .

﴿ يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)

سبب هلاك الأمم

وجعل الله تعالى عقوبة من يخل بشريعته ، وبالعدل الإلهي الهلاك في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر .

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ (الحج : ٤٥)

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف : ٥٩)

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يونس : ١٢)

وما ظلم الله تعالى الأمم الهالكة فقد خلقها في أحسن تقويم وسخر لها ما في الأرض جميعاً ، وأرسل لهم الرسل بالبينات ، ولكنهم عصوا الرسل وظلموا أنفسهم فحق عليهم العذاب

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الحجر : ٤)

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ (الشعراء : ٢٠٨)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (القصص : ٥٨ ، ٥٩)

والملاحظ أن هلاك الأمم يكون بسبب الظلم .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود : ١١٧)

" أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب"(1)

وبعد أن يظلم القوم يهلكهم الله ويأتي بقوم آخرين ويرسل لهم الرسل بالبينات كما فعل مع الأمم السابقة وهكذا

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (١٣٣)

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا ﴾ (الكهف : ٥٥)

ولقد شهدت البشرية عدداً كبيراً من الأنبياء والمرسلين .

﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾(النساء : ١٦٤)

ذكر الله تعالى لنا أسماء خمسة وعشرين رسولا فقط في القرآن الكريم والغالبية العظمى منهم لم يذكروا في القرآن " وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، قال، قلت: يا رسول اللّه كم الأنبياء ؟ قال : "مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً "، قلت: يا رسول اللّه كم الرسل منهم ؟ قال: " ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير"، قلت: يا رسول اللّه من كان أولهم ؟ قال: "آدم"، قلت: يا رسول اللّه نبي مرسل ؟ قال: " نعم خلقه اللّه بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلاً " (2) .

---

(1) تفسير القرطبي للآية الكريمة .

(2) تفسير ابن كثير في قوله تعالى { ورسلا لم نقصصهم عليك }

وتحثنا الكتب السماوية الأخرى ، وكتب التاريخ عن أسماء أنبياء كان لهم عظيم الأثر في أممهم ، ولا تكاد أمة تخلو من واحد أو أكثر من هؤلاء والقرآن الكريم يؤكد في مواضع كثيرة عدم خلو أمة من الأمم من رسول ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر : ٢٤)

ومن أسماء الأنبياء التي ذكرها علماء التاريخ والأديان ولم يرد ذكرها في القرآن في مصر القديمة : تحوت ، وايمحوتب ، وإخناتون ، ومينا ، وفي الهند بوذا ، وماهافيرا، وفي الصين كونفوشيوس ، ومنشيوس ، في إيران زرادشت ، وفي اليونان الإسكندر الأكبر (ذو القرنين) ..

وعلى أيدي الأنبياء والمرسلين جاء العمران والتقدم البشري وإصلاح الأرض ، فلم تكن رسالة الأنبياء والمرسلين قاصرة فقط على تزكية النفوس ،وتطهير القلوب بعبادة الله والواحد الأحد بل أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لإصلاح الكون وتعميره ، فالله تعالى مصدر كل علم نافع تعلمه البشر وأصلحوا به دنياهم التي فيها معاشهم .

فالله تعالى الذي خلق ، وهو الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ (العلق : ١-٨)

وهذه الآيات البينات تؤكد على أن الله تعالى هو ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ فخلق الإنسان في أحسن تقويم يتلاءم مع مهمة الخلافة وحمل الأمانة ، وهيأه للتكليف مع عناصر الكون والاستفادة منها على أحسن وجه " خلق الله المنافع في الأشياء ، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها . " (١)

(١) تفسير القرطبي في تفسير قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } .

الله تعالى مصدر كل علم نافع

ومَنَّ الله تعالى على الإنسان بأن علمه بالقلم ، وعلمه كل علم نافع ، في كتبه وعلى لسان أنبيائه ورسله فعلم آدم الأسماء كلها ، فكان " إدريس عليه السلام (الذي عرفه المصريون القدماء باسم تحوت ،أما اليونان فيطلقون عليه اسم هرمس) أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة " (1)

وكان نوح عليه السلام أول من صنع السفن وركب البحر ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (المؤمنون : ٢٧) والله تعالى هو الذي علَّم داود عليه السلام تصنيع الحديد ، وألانه له ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (الأنبياء : ٨٠)

فالله تعالى مصدر كل علم نافع فهو ﴿ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ ﴾

عن قتادة قال: القلم نعمة من اللّه تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دين ، ولم يصلح عيش . فدل على كمال كرمه سبحانه ، بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبَّه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة ، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب اللّه المنزلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا. " (2)

ولكن كثيراً من البشر لم يسلك سبيل ربه في تعلم العلم النافع ، والقيام بالعمل الصالح الذي من خصائصه حفظ " منظومة المحيط الحيوي التي خلقها الله تعالى قبل

(1) تفسير القرطبي لقوله تعالى { واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا }
(2) نفسه في تفسير قوله تعالى { علم بالقلم }

بدء التاريخ الإنساني ، وتبدأ مكانياً بالطبقات السفلى من الهواء (الغلاف الجوي) والطبقات العليا من الماء (الغلاف المائي) والطبقات السطحية من الأرض (الغلاف اليابس) ، وحدود هذا المحيط هي الحدود التي تتكون فيها الحياة بصورها وأنماطها المختلفة " (1)

فراح الإنسان – تحدوه رغبة محمومة في السيطرة على البشر وعلى الكون – يفسد الكون ويعبث بنظامه بدعوى التقدم ، ويقهر غيره من البشر ، ويستأثر بنعم الله دونه مع أن الله تعالى خلق الأرض لكل الناس .

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾(الرحمن : ١٠)

فكانت النتيجة الإخلال بنظام الكون ، وبتركيب الإنسان ، مما يهدد بفنائهما "وتطورت العلاقة تدريجياً بين الإنسان والبيئة – مع تطور ما اكتسبه من علم واختراع التقنيات – فأصبح هو موجهها والمسيطر عليها ، وانقلب الميزان وتعالت الأصوات تنادي بحماية البيئة من طغيان وجود الإنسان عليها ، وأصبحت قضايا ومشاكل البيئة هي الشغل الشاغل لكل دول العالم وأضحى الاهتمام بالبيئة غير مقصور على الجهد الرسمي منفردا بل أصبح اهتماما يكاد يشغل كل إنسان على هذه الأرض " (2)

إن الله تعالى جامع الناس ليسألهم عما فعلوه إزاء شريعته ، وكونه ، وخلقه ، هل آمنوا به ؟

هل أصلحوا أنفسهم وفق شرعه ؟

هل أصلحوا كونه البديع وفق منهجه ؟

أم أنهم اتكلوا على أنفسهم الأمارة بالسوء ففسدوا وأفسدوا وفي الدعاء المأثور: يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت،

(1) د. محمد نبهان سويلم " التلوث البيئي وسبل مواجهته " الهيئة العانة للكتاب ص ١٩
(2) نفسه . ص ١٣

برحمتك نستغيث، أصلح لنا شئننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك ."

إذن ليس من قبيل المصادفة أن يكون أنبياء الله ورسوله دعاة إصلاح ليس في الدين فقط بل في الدنيا أيضا فقد علمهم الله تعالى العلوم المقدسة التي بها عمار الأرض وإصلاحها بدأً من آدم ، وإدريس ووصولاً إلى محمد خاتم المرسلين ، صلى الله عليهم أجمعين .

إذن التمكين في الأرض لا يكون إلا بالأخذ في أسباب العلم الذي يستنبط السنن الكونية ولا يجور عليها ، ذلك العلم الذي يبني ولا يهدم ، يصنع ولا يلوث الكون . فإذا أراد الإنسان الجمع بين سعادة الدارين فعليه أن يضيف إلى إصلاح الدنيا صحة الإيمان بالله بل عليه أولا أن يؤمن بالله تعالى ويؤدي ما فترضه عليه وينتهي عما نهاه عنه ثم يترجم هذا الإيمان بالعمل الصالح في الدنيا فإن فعل ذلك فقد استحق وعد الله بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين له وإبداله من بعد خوفه أمنا .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(النور : ٥٥)

فالعلم والإيمان هم أساس أي حضارة تحققت على ظهر هذه الأرض بدءاً من الحضارة المصرية القديمة " فالإيمان والعلم كانا أساس حضارة مصر الخالدة في مختلف عصورها الذهبية ، والتخلي عنهما كان السبب المباشر في انحلال الحضارة وانطفاء شعلتها وترديها في عهود الاضمحلال " (١)

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٢٢

وقبل نزول سيدنا محمد كان العالم قد غشاه الظلام ، وانتشر الظلم بين الأنام .

فجاءت رسالة الإسلام هادية للعالمين في مجالي الدين والدنيا

لقد جاء رسول الإسلام الكريم وكانت الدنيا غارقة في ظلمات الكفر والشرك ، كما أنها كانت تعيش في ظلمات الجهل والتخلف فقد كانت الإمبراطوريتان : الفرس والروم قد استنفدا كل مقومات بقائهما وإذن الله تعالى أن يستبدل بهما أمة أخرى تقوم برسالته فأرسل الله تعالى سيدنا محمد في العرب " في الأميين " وعلى الرغم مما كان العرب فيه من كفر وفساد إلا أنهم كانوا أصلح الناس لحمل الرسالة بعد أن طهرهم الله تعالى من كل أردانهم .

السمات السلبية في الشخصية العربية

١- احتقار الحضارة التي أساسها العمل البناء : زراعة وصناعة وعمران ، وكلها تحتاج إلى استقرار وتعاون ونظام وقانون عام وكل هذه العوامل كانت حياة العرب تفتقر إليها جميعا لذا لم يكن لهم حضارة عريقة كالتي قامت في مصر والعراق والفرس والروم والصين .

٢- العيش على ما تجود عليه الطبيعة به فإن أقفرت لجأ إلى السلب والنهب والحرب .

٣- نفوره من النظام والقانون العام والوحدة وميل إلى الفردية والفوضى والفرقة.

٤- الإيمان بدين الآباء والأجداد وإن كانت عبادة الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً .

٥- عبادة العادات والتقاليد التي ورثوها عن الآباء والأجداد وإن كانت فيها هلاكهم.

٦- عصبيون ، يقدمون الانفعال على الحكمة ، والطيش على العقل .

لم يكن الإسلام ديناً يدعو لعبادة الله الحق فحسب بل كان منهج حياة فقد نظَّم علاقة المسلم بربه ، وعلاقته بالكون والحياة ، وعلاقته بإخوانه المسلمين ، وعلاقته بغير المسلمين مسالمين ومحاربين ... وبالجملة لم يترك الإسلام شأنا من شئون الحياة إلا جاء فيه بالقول الفصل . فما ترك فضيلة إلا ودعا إليها ، وما ترك رذيلة إلى وحذر منها وحرمها .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٣٠)

وقد أثبت التاريخ أن العرب لا يحصل لهم المُلك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة . كما قال ابن خلدون .

فعندما آمن العرب بما جاء به الإسلام : عقيدة وشريعة وأخلاق توحدوا للمرة الأولى وأصبحوا أمة مؤمنة عالمة قوية بعدما كانوا قبائل كافرة جاهلة متناحرة .

وأسقطت طواغيت الشرق والغرب ، وحررت الشعوب من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . كما قال ربعي بن عامر عندما سأله رستم قائد الفرس : " قال ما جاء بكم – لغزو بلاد الفرس – قال الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله .

قال رستم : وما موعود الله ؟

قال ربعي : الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي .

ماذا صنع الإسلام في العرب ؟

وبالأيمان بدَّل الله تعالى من صح إيمانه من العرب – و غيرهم – من بعد خوفهم أمنا ومن بعد ضعفهم قوة حتى دانت لهم الدنيا .

﴿ وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(النور : ٥٥)

وبالإيمان والتمسك بشريعة الله تحول المؤمنون العرب إلى إخوة متحابين بعد أن كانوا هم المتناحرين دوما المتقاتلين أبداً فإذا بهم بنعمة الإيمان بالله يتحولون إلى أخوان متحابين متعاونين .

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(آل عمران : ١٠٣)

وبعد أن كان العربي ذا حمية جاهلية واندفاع وتهور أنزل الله على المؤمنين منهم سكينة وألزمهم كلمة التقوى ، وثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب الكفار من الحمية .

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح : ٢٦)

واستبدل الله تعالى المؤمنين العرب الأخوة الدينية بالعصبية الجاهلية ، وجعل كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا" . وفي رواية: " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب أمريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " لفظ مسلم.

وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " (١)

أما عن العصبية الجاهلية ونصرة الأخ ظالما ومظلوما فقد صحح الإسلام مفهوم النصرة فجعلها للحق والعدل والدين ، أما العدوان فلا يكون إلا على الظالمين .

" انصر أخاك ظالما أو مظلوما. قيل: كيف أنصره ظالما ؟ قال: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره " (رواه البخاري وأحمد)

فنصرة الأخ تكون في الحق فقط فإن رأيته على باطل ضربت على يده ومنعته من التمادي في الباطل .

(١) تفسير القرطبي لقوله تعالى { إنما المؤمنون إخوة }

﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال : ٧٢)

وشدد الإسلام في حرمة المسلم وجعل عقوبة من قتل مؤمنا متعمدا الخلود في النار فإذا لم يكن متعمدا فعليه تحرير رقبة مسلمة ودية مسلمة لأهله .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : ٩٢ ، ٩٣)

كما أسقط الإسلام ثارات الجاهلية ، فالإسلام يَجُب ما قبله .

فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلاَ أَيُّ يَوْمٍ أَحْرَمُ ؟) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. قَالُوا: يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ. قَالَ (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعَراضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذَا، وَلاَ مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ. أَلاَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هذَا أَبَداً. وَلكِنْ سَيَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَيَرْضَى بِهَا. أَلاَ وَكُلُّ دَمٍ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ. وَأَوَّلُ مَا أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحرِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (كَانَ مُسْتَرْضِعاً فِي لَيْثٍ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ) أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ رِباً مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ. لَكمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ. لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ. أَلاَ يَا أُمَّتَاهُ! هَلْ بَلَّغْتُ؟) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ (اللّهُمَّ اشْهَدْ) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ (رواه أبو داود)

ولقد جعل النبي الدعوة إلى العصبية ، والقتال عليها خروج من الإسلام .

" ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية "

وعد النبي سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .

" سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر "

ونفى الإسلام عمن حمل على المسلين السلاح .

" من حمل علينا السلاح فليس منا "

كذلك جعل النبي السلب والنهب الذي كان شائعاً في الجاهلية من قام به فهو خارج عن الإسلام .

" ليس منا من انتهب ، أو سلب ، أو أشار بالسلب "

كما جاء الإسلام ليضع القصاص في يد ولي الأمر لا لولي القتيل ، ولا قصاص إلا من القاتل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٨٧)

وبالنسبة للمرأة فقد رفع الإسلام شأنها وجعلها مساوية للرجل وجعل مقياس التفاضل بينهما هو التقوى والعمل الصالح وليس التفاضل على أساس النوع : ذكر وأنثى كما كان شائعا في الجاهلية .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣)

" إنّمَا النّسَاءُ شَقَائِقُ الرّجَالِ" (رواه أحمد ، والترمذي ، وأبو داود)

الإسلام وعمارة الإرض

أما بالنسبة للعمل وتعمير الكون فقد جعل الإسلام مهمة الإنسان المؤمن الإيمان بالله وتعمير الكون فالعمل الصالح النافع عبادة يتقرب بها المسلم على الله .

لقد طهر الإسلام العرب المؤمنين به من كل أدران الجاهلية وصبغهم صبغة الإسلام ومن أحسن من الله صبغة ؟ فجعل العلاقة بين المسلمين تقوم على الحب والتعاون والإيثار أما علاقة المسلم بالأمم الأخرى فتقوم على حسن الجوار ، والمحافظة على المعاهدات الدولية ، وإن جنحوا للسلام يجابوا إليه ، ولا يبدءون بالعدوان فالحرب في الإسلام تكون لرد العدوان وليس للاعتداء على الآمنين المسالمين .

﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٠)

فالحرب في الإسلام لرد العدوان وليس للابتداء به كما كان حال أهل الجاهلية الذين كان دستورهم :

وَمَن لا يَذُد عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّم وَمَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

فجاء الإسلام ليجعل العدوان فقط على الظالمين .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٣) .

وهكذا جاءت أحكام الله دستوراً شاملاً لكل مناحي الحياة ذلك الدستور الإلهي العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بعكس قوانين الجاهلية الجائرة.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة : ٥٠)

ولما كانت الدعوة الإسلامية حركة إصلاحية أعظم تنقذ البشرية جمعاء من الاستبداد والفقر والرذيلة والتأخر الحضاري ، وثورة على النظم الرجعية القديمة التي تتنافى هي والإنسانية والحضارة . وكل ثورة إصلاحية لا بد أن تلقى حركات مضادة ، تبعا لسنة الحياة ، وتعبيراً عن الصراع بين القديم البالي ، والجديد الناهض ، وبين أنوار الحضارة وظلام الجاهلية الرجعية " (١)

ولأسباب دينية ، واقتصادية ، وسياسية ، ونفسية رفضت قريش معظمهم الإسلام وبذلوا غاية جهدهم في صرف صاحب الرسالة عن إتمام رسالته .

فلم يجد النبي بداً من الهجرة إلى المدينة ، وفي المدينة بدأ النبي في إنشاء حضارة الإسلام ، وإقامة المجتمع الإسلامي الرشيد الذي سيحمل رسالة الإسلام إلى جميع الآفاق فبدأ بعقد المؤاخاة بين الأنصار واليهود ، ثم وضع دستور المدينة الذي ينظم العلاقة بين المسلمين وبين يهود المدينة وكان أهم ما جاء فيها :

" إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ؛ وإن ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغُ –يهلك– إلا نفسه ، وأهل بيته وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ؛ وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ؛ وإن النصر للمظلوم " (٢)

---

(١) د. علي حسني الخربوطلي " الحضارة الإسلامية " دار المعارف ص ٨

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، سيرة ابن هشام باب وموادعته– ﷺ– اليهود الذين كانوا بالمدينة.

وفي المدينة أصبح للإسلام نظام سياسي وحضاري إلى جانب أنه رسالة هداية ورشاد ، وكان أبرز ما حققه الإسلام في المدينة " محو البدوية الجاهلية ، وإقامة حضارة اجتماعية جديدة راقية ، تقوم على الحرية والإخاء والمساواة ، وتسمو بالإنسانية ، وتقضي على الجهل والفاقة ، وتدعم روح الجماعة ، وتقضي على الروح الانفصالية ، والإقليمية والفردية ، وتحقق الزمالة الإنسانية ، والمشاعر العالمية " (1)

وانتقلت زعامة العرب من قريش إلى المسلمين في المدينة وتأكد ذلك بفتح المسلمين مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، لكن على الرغم من أن المسلمين لم يرغموا أحدا على اعتناق الإسلام لأنه " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " إلا أن بعض الذين دخلوا الإسلام لمَّا يدخل الإيمان قلوبهم لذا سارعوا إلى الارتداد عنه بعد موت النبي ، وكانت حركات الردة أخطر حركة مضادة للإسلام وحضارته فهي تهدد بعودة الجزيرة العربية إلى الجاهلية الرجعية لقد شق على العرب أن يتركوا الحضارة الإسلامية الناهضة بأن تتبوأ مكانهم وتقصيهم عن زعامة العرب لذا كانوا لا يفوتون فرصة للانقضاض على الإسلام إلا واستغلوها أسوأ استغلال وحروب الردة – في الحقيقة – حروب بين مسلمين مؤمنين تمسكوا بدينهم الإسلامي ، وبما أفاءه الإسلام عليهم من حضارة وتقدمية ناهضة ، وبين مرتدين نبذوا تعاليم الإسلام التقدمية ، ليعودوا إلى حياتهم الجاهلية البائدة ، فضلاً عن خروجهم عن الولاء السياسي للدولة الإسلامية ، وانشقاقهم عن المجتمع الإسلامي الموحد .

" إن الرواسب النفسية التي خلفتها الجاهلية الفاسدة في نفوس الأفراد ، لم تتوقف عن بث سمومها في المجتمع ، ولم يكن من الممكن القضاء عليها قضاء مبرماً في زمن قصير ، لأنها ترسبت في اللاشعور " (2) .

---

(1) د. علي حسني الخربوطلي " الحضارة الإسلامية " مرجع سابق ص ١٢

(2) نفسه ص ١٥

وكان انتصار أبي بكر والمسلمين على حركات الردة إيذاناً بأن قطار الحضارة الإسلامية قد انطلق ولن يتوقف حتى يصل إلى غايته رغم ما يعترضه من عقبات فلم يؤد انتصار المسلمين في حروب الردة " إلى عودة الوحدة الدينية والسياسية والاجتماعية إلى الجزيرة العربية فحسب بل كان لهذا الانتصار أثره في تاريخ العالم وفي الحضارة البشرية فقد بدأت الفتوح الإسلامية ، التي أدت إلى انطلاق الحضارة الإسلامية إلى آفاق أوسع " (1)

وبفضل تعاليم الإسلام السامية التي تأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام ، وتنهى عن الظلم والبغي ومنكر القول والعمل انتشر الإسلام " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (النحل : ٩٠)

دخل أبناء الأمم المفتوحة من عرب وعجم في دين الله أفواجاً لما رأوا من أن الإسلام دين متوازن .. كما أنه يسوي بين الناس مهما اختلفت أعراقهم فقد خلقوا من أب واحد وأم واحدة ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات : ١٣)

وحارب الإسلام كل ألوان العصبية ، ودعا إلى الأخوة والمحبة بين جميع المسلمين حتى يشيدوا صرح الإسلام العظيم قال رسول اللّه ﷺ : "لا تَحاسَدُوا، وَلا تَناجَشُوا، وَلا تَباغَضُوا، وَ لاَ تَدَابَرُوا، وَ لا يَبْغِ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إِخْواناً، المُسلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنا ـ ويشيرِ إلى صدره ثلاثَ مرات . بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ ومَالُهُ وَعِرْضُهُ" (رواه مسلم)

---

(1) نفسه ص ١٦

وأخرج الإسلام أجمل ما في المؤمنين به من فكر وعلم وحضارة وتقدم ، كل ذلك مع إيمان وحسن خلق لذا لا عجب أن شهد العالم ظهور حضارة عظيمة ورثت الحضارات البائدة وارتقت بالبشرية إلى معارج الرقي والتقدم .

مكانة العلم في الإسلام

كان مبتدأ العلم في الإسلام .

- علوم الدين : تفسير ، وفقه ، وسيرة ، وحديث ..
- العلوم العربية : نحو ، وصرف ، ولغة ، وبلاغة ..
- علم الكلام للدفاع عن العقائد الإسلامية بالأدلة العقلية لمواجهة أهل البدع والإلحاد .

وفي ذلك يقول ابن خلدون " صارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع "[1]

ولم يكن المسلمون منغلقين على أنفسهم مستعلين بدينهم ولغتهم ، غير راغبين في الاستفادة من غيرهم من أصحاب الحضارات السابقة ، وأنى يكون لهم هذا ودينهم الحنيف دعاهم إلى العلم والتفكير في نحو ألف آية كريمة ، وذم الجهل والتقليد في مواضع كثيرة .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(1) عبد الرحمن بن خلدون " مقدمة ابن خلدون " ص ٥٤٤ دار القلم لبنان .

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٦٤)

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّـهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّـهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ (نوح : ١٦ – ٢٠)

﴿ إِنَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّـهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الجاثية : ٣–٥)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت : ٥٣)

ولقد نعى الله على أولئك المتخلفين الذين يرفضون الفهم الجديد ويقدسون مواريث القديم البائدة تقليدهم ، أولئك الجهال المقلدون لغيرهم تقليدا أعمى دون بصيرة ، ودون فقه لدين أو لواقع فقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّـهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُون ﴾ (البقرة : ١٧٠)

ويصف الله تعالى المقلدين تقليدا أعمى بالعمى فى الدنيا ، وتوعدهم بالعمى فى الآخرة ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

(الإسراء : ٧٢)

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٧١)

ويفسر الأستاذ الإمام محمد عبده هذه الآية فيقول " إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شان الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه

وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ، فمن رُبِيَّ على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحا بغير فكر فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يُذَلَل الإنسان للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل المقصود منه أن يرتقي بعقله ، وترقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه فقه أنه الخير النافع المرضي لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته .. والدعوة إلى النظر في الكون لاستنباط سننه وللاهتداء إلى الإيمان ببارئه يكررها القرآن مئات المرات في وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة تدعوه إلى التدبير والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبيِّنة ، وتحذره من الأخذ بما وجد آباءه عليه من غير نظر فيه ولا تمحيص له " (١)

وما خاطب الله تعالى أولى الحفظ مرة إنما خاطب أولى الألباب فى ست عشرة مرة فى كتابه العظيم .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب بدراسة سير الأنبياء والصالحين واستخلاص العبرة والموعظة من حياتهم ، و الإقتداء بهم فى حياتهم الزاخرة بالإيمان والعمل الصالح . ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾

كما يرفع الله تعالى درجات العلماء فى الدنيا والآخرة .

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة : ١١)

" إن دراسة الكون نهج قرآنى واضح ، لبناء الإيمان : أولا : ولدعمه وحراسته . ثانيا: ولمنافع البشر ومتاعهم . ثالثا : ومع ذلك فإن أجيالا كثيفة غلقت مشاعرها دون هذه الدارسة " (٢)

(١) نقلا عن د. أحمد عبد الرازق أحمد " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " ص ٢٠٤
(٢) محمد الغزالى " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " مرجع سابق ص ٧٠

الإسلام والحضارات السابقة

أمر الله تعالى المسلمين بأن يدرسوا تاريخ من سبقوهم ليأخذوا منه العبرة ويستفيدوا من إصلاحهم ولا يكرروا أخطاءهم .

يقول تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت:٢٠)

ولم يكتف الله الرحمن الرحيم بالأمر بالبحث فى تاريخ السابقين بل أمر أيضا بدراسة آثارهم الباقية .

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات : ١٣٧-١٣٨)

كانت قريش تَمُرُّ وهى فى طريقها إلى الشام بمدائن قوم لوط لذا أمرهم الله تعالى بدراسة هذه الآثار وتاريخ هذه القرية ليستخلصوا منها العبرة ولا يكونوا أمثالهم فالعاقل من اتعظ بغيره .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾
(الفرقان : ٤٠)

أفلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا : أى فى أسفارهم ليعتبروا .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴾ (الفجر : ١٠) .

والأوتاد : الآثار ذات الدعائم المشدودة إلى الأرض بقوة مثل المسلات وغيرها.

ويحدثنا القرآن الكريم عن ثمود (قوم نبى الله صالح) وعن آثارهم .

﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ (الحجر : ٨٢)

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ (الفجر : ٩) .

وبعد أن كذبت ثمود نبى الله صالح وعقروا الناقة أهلكهم الله تعالى .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّـهِ نَاقَةَ اللَّـهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾

(الشمس : ١١– ١٥) .

وظلت بيوتهم شاهدة عليهم وعبرة للعقلاء من بعدهم .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل : ٥٢) .

ولم يكتف الله عز وجل بأن أمرنا بدراسة تاريخ الإنسانية وآثار القدماء بل قصَّ علينا قصصاً كثيرة من حياة الأمم .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف : ٣)

ومعنى القص ليس مجرد الحكاية تروى للتفكه أو لشغل الفراغ ، إنما القصص يرويها القرآن لنتتبع أثرها بما توفر لدينا من علوم ومعارف ، ونستخلص منها الحكمة و المعرفة.

وهذا هو معنى القصص كما جاء فى القرآن الكريم ومعاجم اللغة " قَصَصْت الشيء إذا تتبّعْت أَثره شيئاً بعد شيء؛ ومنه قوله تعالى: وقالت لأُخْته قُصّيه؛ أَى اتّبِعى أَثَرَه."(١)

ويوضح الله تعالى الهدف من القصص فيقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (يوسف : ١١١) .

تأمل معى هذه الآية العجيبة التى توضح لنا الهدف من دراسة تاريخ الإنسانية، وهو العِبْرة أتدرى ما معنى العبرة ؟

(١) مادة قصص فى لسان العرب .

العبرة هي " : العَجَب. واعْتَبَر منه: تعجّب. وفي التنزيل: فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبصار؛ أَي تدبّروا وانظُروا ، والعبرة : كالمَوْعِظة مما يَتّعِظُ به الإنسان ويَعمَلُ به ويَعتبِر ليستدل به على غيره. والعِبْرة: الاعتبارُ بما مضى " [1].

ومَن هؤلاء الذين يتدبرون التاريخ ويستدلون به على غيره ؟

يجيبك القرآن الكريم : ﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾

وأولو الألباب الذين يعرفون أن طبيعة الإنسان واحدة منذ خلقه الله تعالى – وإن كانت معارفه متنامية – وأن على العاقل أن يتعظ بغيره حتى يدرك ما أدرك من نجاح ويتجنب ما أصابه من فشل ، والاتعاظ غير التقليد . فإذا كان الاتعاظ يدفع للأمام فإن التقليد يشد للخلف . [2]

إن منهج القرآن الكريم يرشدنا إلى خير الدنيا والآخرة ، ولقد كان أنبياء الله كما بينا دعاة هداية ودين ، كما أنهم دعاة إصلاح وتعمير .

ولقد فهم المسلمون الأوائل عن الإسلام وجوب إعمال العقل والاستفادة من الحضارات السابقة .

"الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ" (رواه الترمذي)

أي لا يزال يتطلبها كما يتطلب الرجل ضالته .

" اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم " (٣)

---

(٢) مادة عبر في لسان العرب .

([2]) لمزيد من التفصيل حول العلم وأهميته في نهضة المسلمين راجع الفصل الرابع من كتاب " ميزان الحق " للمؤلف .

([3]) رواه البيهقي والخطيب وابن عبد البر والديلمي وغيرهم عن أنس، وهو ضعيف، وله طرق رما يصل بمجموعها إلى الحسن .

حضارة الإسلام إحياء للحضارة المصرية القديمة

ولقد استفاد المسلمون من جميع الحضارات السابقة كما استفاد أصحاب الحضارات الأخرى بالحضارة المصرية القديمة ، بالإسلام فتاريخ العلم يشهد بأن الذين صنعوا الحضارة الإسلامية هم المسلمون من أصحاب الحضارات السابقة يقول ابن خلدون : " إن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم " (١)

وهكذا قامت الحضارة الإسلامية على أكتاف كل المسلمين فمسلمو العرب فتحوا البلاد ونشروا الدين ، ومسلمو الأمم الأخرى كمصر والشام والعراق والأندلس .. أقاموا صرح الحضارة على هدى الإسلام وتعاليمه ، وبما تعلموه من حضارة أممهم والأمم الأخرى من أصحاب الحضارات القديمة . ، وكان مسلمو العرب من الذكاء بحيث أبقوا على النظم الإدارية والسياسية والمالية التي كانت متبعة سابقاً في البلاد المفتوحة ذات الحضارة ، كما حافظوا على التقاليد الفنية والصناعية لدى أهلها .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤

وتعد الحضارة الإسلامية واحدة من أعظم الحضارات التي عرفها العالم " بسبب الدور الذي لعبته في تاريخ الإنسانية ، ففي بوتقة الحضارة التقت حضارات عديدة متباعدة نجحت في اختيار العناصر الصالحة منها ثم مزجت بينها وأكملت نواحي النقص فيها " (١)

ولاغرو أن استفادة الحضارة الإسلامية من الحضارات السابقة فهي تعد نفسها الوريثة الشرعية لحضارة المصرية القديمة أمُّ الحضارات كما أنها انتفعت بكل العلوم الأخرى التي تتفق وشريعة الإسلام ، فالعلوم العقلية كالطبيعية والرياضية والتكنولوجيا (٢) لا وطن لها ولا دين " العلوم العقلية كالطبيعة والرياضة والطب فأكثر ما تعتمد على معقولية الحقائق وامتحانها إما عن طريق المنطق ، وإما عن طريق تجربة الحقائق وامتحانها عملياً ، فإذا ذكرت حقيقة فقلما يعنون بقائلها ، ولكنهم يعنون بوضع قواعد المنطق ، هل من قوانينه ما يؤيدها أو ما ينقضها ، وكذلك يمتحنونها عمليا ليرقبوا نتيجتها فيحكموا عليها بالخطأ أو الصواب " (٣)

التأثيرات الأجنبية في الحضارة الإسلامية

ويمكن إجمال التأثيرات الأجنبية على الحضارة الإسلامية في يما يلي :

١- تأثيرات إغريقية أو هيلينية دخلت الحضارة الإسلامية عن طريق بعض مراكز الحضارة الإغريقية مثل : الرها ، وأنطاكية ، والإسكندرية ، وغيرها ولقد أخذت الحضارة الإسلامية عن الإغريق والرومان علوم كثيرة : كالطب ، والتشريح، والرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والفلسفة وغيرها من العلوم .

---

(١) د. أحمد عبد الرازق أحمد " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " دار الفكر العربي ص ١١

(٢) التكنولوجيا : التطبيق العملي للعلم ، وجميع ما اخترعه الإنسان من آلات تكونولوجيا سواء أكانت أدوات قديمة كالفأس والساقية والقدوم والمنشار .. أم كانت أدوات وأجهزة حديثة كالتلفون والراديو والكومبيوتر وسفن الفضاء ...

(٣) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ١٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويذكر عالم المصريات الدكتور عبد المنعم أبو بكر : " إن مصر تعد أمَّاً للحضارة وأنه ما من شيء ننعم به الآن إلا كان للمصريين الفضل الأول في ابتكار أصوله ، ولم يبتدع اليونان أسس الحضارة الإنسانية ، ذلك أن ما ورثوه كان أكثر جداً مما ابتكروه ، ويقول علماء الحضارة اليونانية كانوا الوارث المُدَلَّل لذخيرة من الفن والعلم نبتت وازدهرت بمصر قبل ذلك بعدة آلاف من السنين . " (1)

٢- تأثيرات فارسية في مجال الفنون والنظم ، فقد أدى انتشار الإسلام بين الفرس وتعلمهم اللغة العربية إلى تسهيل حركة الترجمة من الفهلوية - لغة الفرس القديمة - إلى العربية وشملت حركة الترجمة تراث الفرس الأدبي والفني إلى جانب بعض العلوم كالهندسة والفلك والطب والعمارة ، وهذه العلوم والفنون أثرت بشكل واضح في الحضارة الإسلامية عندما سيطر الفرس في الخلافة العباسية على مراكز صنع القرار وتمكنهم من تنحية العناصر العربية عنها .(2)

٣- تأثيرات الثقافة الهندية ، ولقد أشاد علماء المسلمين بالحضارة الهندية وثقافتها التي انتقل جزء كبير منها إلى الفرس بحكم ما بين الطرفين من علاقات قبل الفتح الإسلامي لبلاد فارس حيث أخذ المسلمون من بين ثنايا التراث الفارسي أجزاء من ثقافة الهنود وعلومهم مثل : الرياضيات ، والفلك ، والطب التي حقق فيها الهنود نتائج باهرة لم يسبقهم فيها أحد فعن الهند أخذ المسلمون الأعداد الحسابية ، والتداوي بالأعشاب ، وكثير من الحكم والأمثال ، وبعض الألعاب مثل الشطرنج ، والقصص مثل كليلة ودمنة .

---

(1) صحيفة الأهرام القاهرية في ١٨ / ٦ / ١٩٧١ نقلا عن كتاب " صراع الحضارات " د . أحمد شلبي .

(2) هذا ما يؤكده علماء وباحثو الحضارة الإسلامية مثل حسن الباشا في كتابه " في الحضارة " ص ١٤ ، سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون في كتاب " دراسات في الحضارة " ص ٩٠-٩١ ، وفليب حتى في كتاب " تاريخ العرب " ص ٣٨٣- ٣٨٤ ، ود. أحمد عبد الرازق أحمد " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " ص ٣٣

٤- تأثيرات الحضارة الصينية ، فقد أخذ المسلمون عنهم صناعة الورق ، والبوصلة ، ونترات البوتاسيوم – ملح البارود – الذي استخدم في صناعة الأسلحة، كما أخذوا عنهم الصناعات الخزفية المصنوعة من الخزف أو البورسلين .

٥- تأثيرات بيزنطية ، وجاءت نتيجة فتح المسلمين بعض الأمصار التابعة لدولة الروم كمصر وبلاد الشام ، الأمر الذي ساعد على استيعاب الحضارة الإسلامية لكثير من مظاهر الحضارة البيزنطية في مجال الإدارة والنظم والفنون والعمارة ، وحسبنا أن نذكر أن الجيش الأموي نظم على غرار الجيش البيزنطي ، كما ضربت العملة الإسلامية في بادئ الأمر على غرار العملة البيزنطية والفارسية كما تأثر المسلمون أول الأمر بالعمارة البيزنطية التي تبدت في القصور والكنائس والمعموديات والأضرحة التي كانت تزخر بها بلاد الشام ومصر ، ولم يأنف المسلمون أن يتتلمذوا على أيدي أرباب الحرف والفنانين الشوام ، وأقباط مصر وغيرهم من أصحاب الحضارات القديمة ممن دخل في الإسلام أو ظل على ديانته القديمة . (١)

ولم تقف الحضارة الإسلامية عند حد النقل والمحاكاة من الحضارات التي أخذوا عنها " بل تعدُّوا ذلك إلى الدراسة ،والفحص ،والشرح ،والنقد ،وإصلاح الأخطاء التي وقع فيها أسلافهم من العلماء السابقين ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، اكتشافات علمية مبتكرة لم يتوصل إليها الفكر البشري من قبل " (٢)

---

(١) لمزيد من التفصيل عن تأثر الحضارة الإسلامية بالحضارات الأجنبية الأخرى الرجوع إلى حسن الباشا في كتابه " في الحضارة " ، سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون في كتاب " دراسات في الحضارة "، وفليب حتى في كتاب " تاريخ العرب " ، ود. أحمد عبد الرازق أحمد " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " د. على حسني الخربوطلي في كتاب " الحضارة الإسلامية " ، وكتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية " منظمة تحت إشراف اليونسكو .

(٢) د. أحمد عبد الرازق " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " ص ٣٥ .

هل درس المسلمون الحضارة المصرية القديمة ؟

والعجيب ألا يذكر المؤرخون تأثير الحضارة المصرية القديمة في الحضارة الإسلامية الوسيطة وهي أقرب الحضارات إليها .

فهل كان المسلمون من السذاجة بحيث يهملون الحضارة المصرية الأم ويتجهوا إلى غيره من حضارات وليدة ؟

ألم يحاول المسلمون قراءة الحضارة المصرية القديمة وقد أحاطت بهم من كل اتجاه ؟

ألم يستلفتهم – وهم الأذكياء اللمَّاحون – الهرم الأكبر المعجزة الخالدة ؟

ألم يجذبهم التاريخ المصري القديم وهم الذي أرخوا لكل الأمم ؟

هل عجزوا عن فك رموز اللغة المصرية – لغة حضارتهم –حتى جاء الفرنسي شامبليون لكي يفكها لهم ويعلمهم تاريخهم ؟

تعود المحاولات الأولى لفك طلاسم الكتابة الهيروغليفية إلى الاغريق. وقد ساد الاعتقاد لديهم ان الرموز الهيروغليفية هي رموز صورية. من كتابات الإغريق عن هذا الموضوع وصلتنا مخطوطة واحدة هي "الهيروغليفية" لمؤلفها هورابولون في أوروبا خلال العصور الوسطى لم يكن هنالك اهتمام بالهيروغليفية إلا أنه عام ١٤٢٢ وصلت مخطوطة هورابولون إلى البندقية مما أثار الاهتمام بها حتى أن بعض فناني عصر النهضة قاموا برسم رموز متخيلة بناءً لأوصاف هورابولون واستعملوها في رسومهم كعناصر فنية.

وقد قامت عدة محاولات لكشف طلاسم الهيروغليفيه قبل اكتشاف حجر رشيد في العصر الحديث، منها محاولات الأب كرشر اليسوعى الذي عرف أن القبطيه ماهى إلا لهجة أو لغة منحدرة من المصرية القديمة.

وأول جهود بعد اكتشاف حجر رشيد كانت محاولات فيليب دى ساسى ١٨٠٢ وكان عالماً بالعربية وقد انصبت محاولاته على الخط الديموطيقي لأنه ظن أن له علاقة بخط الرقعة العربي لتشابههما ظاهرياً في الانسياب، إلا أن أبحاثه لم تسفر إلا عن نتيجه واحدة وهي أنه عرف أن أسماء الملوك توضع في خرطوش و هو مما أفاد شامبليون لاحقاً.

بعد اكتشاف حجر رشيد خلال الحملة الفرنسية على مصر قام العالم شامبوليون بنشر اكتشافه حول كيفية فك طلاسم اللغة الهيروغليفية عام ١٨٢٢. وقد اعتبر شامبوليون أول من اكتشف أن الرموز الهيروغليفية هي رموز صوتية وقام بفك رموزها.

إلا أنه عام ٢٠٠٤ كشف عالم المصريات عكاشة الدالي أن أول من اكتشف أن الرموز هي عبارة عن رموز صوتية أي حرف هو العالم العربي ابن وحشية وكان ذلك في مؤلفه " شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام " الذي درس فيه ٨٩ لغة ونظام كتابة قديمة منها الهيروغليفة وقام بتحليل العديد من رموزها الذي وضعه سنة ٨٦١ م، وقد حقق المستشرق النمساوي جوزف همر تلك المخطوطة وترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في لندن عام ١٨٠٦ أي ١٦ عاماً قبل اكتشاف شامبوليون، ونشر خبر ذلك في عدة وسائل إعلام غربية ، كما أن الباحث السوريّ يحيى مير توصل إلى ذات النتيجة وذهب البعض إلى القول أن شامبوليون كان قد اطلع تلك هذه المخطوطة إلا انه لا توجد لدينا دلائل تؤكد أو تدحض هذا الادعاء . (١)

لقد كشف الدكتور عكاشة الدالي الأستاذ بجامعة يونيفيرستي كوليدج والذي يعمل بأحد أهم متاحف انجلترا متحف بتري للآثار المصرية بجامعة لندن في الحوار الذي

---

(١) راجع موقع " ويكيبيديا، الموسوعة الحرة " على النت .

أجرته معه مجلة آخر ساعة عن صفحة مجهولة في كتاب الحضارة الإسلامية الخالدة.

فأكد بالادلة القاطعة معرفة المسلمين للغة المصرية القديمة واستفادتهم من الحضارة المصرية القديمة مباشرة فضلاً عما استفادوه مترجماً من الحضارات الأخرى .

" في بداية اللقاء أكد الدكتور عكاشة الدالي أن علماء العرب لهم اجتهادات علمية كبيرة في مختلف مناحي الحياة العلمية سواء في الطب أو العلوم أو الهندسة والفلك وهو ما يعترف به العالم الغربي المستعد دائما للاعتراف بفضل العرب عليهم وتقدمهم في هذا المجال.. كما لا ينسي الغرب للعرب فضلاً آخر هو الحفاظ علي التراث اليوناني ونقله للأوربيين ولولا جهود العرب في هذا المجال لفقدت إلي الأبد الآداب والعلوم والحضارة اليونانية مع الأخذ في الاعتبار أن العرب لم يكونوا مجرد نقلة لهذه العلوم والمواد العلمية للكتابات اليونانية بل تشربوها وأضافوا إليها وطوروها .

والغرب إذا كان يعترف بفضل العرب في كل المجالات إلا أنه لا يذكر العرب إطلاقاً ولا المسلمين إذا تعلَّق الأمر بدراسة الحضارة والآثار المصرية القديمة بل ويروجون لأفكار غير حقيقية هي أن الإسلام يحارب الحضارات ويعتبر أن كل ما سبقه جاهلية وأن الإسلام يمحو ما قبله ويكفر الدارسين والمهتمين بالحضارات السابقة.. والحقيقة أن الإسلام بريء من هذه الاتهامات ونصوص القرآن صريحة في مجال رفع العلم والعلماء ونصوص القرآن الكريم تحض المسلم علي السير في الأرض والنظر والتفكر في كيفية بدء الخلق وشجع العلم ورفع العلماء علي الذين لا يعلمون.. وأضاف أنه بالرغم من أن الإسلام يأمرنا بالسعي في الأرض ومعرفة كيف بدأ الخلق نجد هناك من يحاول خلق الصراع بين المسلمين والحضارة الفرعونية بالرغم من عدم

وجود صراع بين الحضارتين فنحن أبناء الحضارتين نعيش كمسلمين نعلم تماما تعاليم ديننا ونزهو بحضارتنا القديمة التي امتدت إليها الحضارة الإسلامية .

وأكد لي الدكتور عكاشة الدالي علي عدم وجود أي صراع بين كوني مسلماً متحمساً للإسلام ومهتماً بالحضارة المصرية القديمة أو تناقض بين اهتمامي باللغة العربية أو اللغة المصرية القديمة 'الهيروغليفية' وبنظرة فاحصة للتاريخ العربي الإسلامي في مصر نؤكد أن المسلمين في القرون الوسطي أخذوا علي عاتقهم القيام بدراسات علمية مكثفة لكل ما سبقهم من حضارات وعلي رأسها الحضارة الفرعونية كما كان لهم السبق في اكتشاف مغاليق الكتابات المصرية القديمة وعلي رأسها اللغة الهيروغليفية وذلك قبل شامبليون نفسه بمئات السنين وعندي الدلائل الكثيرة عن هذا الموضوع وقد سجلتها في رسالتي للدكتوراة والتي حصلت عليها وكانت بعنوان مصر القديمة في الكتابات الإسلامية والعربية العائدة للعصور الوسطي .

واستطرد .. أما الدليل عن المبحث الأول وهو اهتمام العرب والمسلمين بالدراسات الأثرية فواضح حيث إن المعابد المصرية القديمة أغلبها كان قائما عند الفتح الإسلامي وحرص العرب الأقدمون علي زيارة الآثار المصرية .

الشريف أبو جعفر محمد بن عبدالعزيز الإدريسي المتوفي عام ١٢٥١ ميلادية وهو فقيه ومحدث ورث العلم عن والده فقد قام بتأليف كتاب يعد من أهم الكتب العلمية عن تاريخ الأهرام وعنوانه " أنوار علوم الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام " وهو عبارة عن رسالة من سبعة فصول ناقش فيها الطريق إلي الأهرام وسبب بناء الأهرام ومتي تم بناؤها والوظائف المرتبطة ببنائها والذين زاروا الأهرام وهي دراسة عظيمة جدا استخدم في مصادره لهذه الدراسة مالا يقل عن ١٣٠ كتاباً ٣٠ كتاباً منها علي الأقل له علاقة مباشرة بموضوع الدراسة.. الأهرام والشريف الإدريسي،له ٣ كتب

مكرسة لتاريخ مصر القديمة منها كتاب الجوهرة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة. وهذا بالطبع يؤكد أن الإسلام لم يقف أبداً أمام علوم الآثار والحضارة المصرية وإلا ما بقيت هذه الآثار وما كان لفقيه محدث متبحر في علوم الفقه والحديث الشريف أن يكرس حياته لدراسة وكتابة تاريخ مصر القديمة وهو ما ينفي شائعة أن المسلمين ليس لهم اهتمامات وأنهم يرفضون دراسة الحضارات القديمة بصفتها وثنية .

ويضيف د.عكاشة الدالي بأن العرب والمسلمين إذا كان لهم باع كبير في دراسة الآثار والحضارة المصرية فإنه يحسب لهم السبق في حل سر اللغة المصرية القديمة وخاصة الهيروغليفية وقد نجح في هذا المجال العديد من العلماء العرب ويأتي علي رأسهم العالم العربي أيوب بن سلمة من القرن التاسع الميلادي والذي يقال إنه اصطحب الخليفة العباسي المأمون حين زار مصر عام ٨١٦ ميلادية وقرأ له الكتابات المصرية الموجودة علي الآثار المصرية سواء في عين شمس أو الأهرام وجاء من بعد أيوب بن سلمة العالم الصوفي الكبير ذو النون المصري الذي كان يقرأ الكتابات الفرعونية وعلي جدران المعابد .

ثم جاء بعدهما العالم العراقي ابن وحشية الذي زار مصر في القرن العاشر الهجري وكان أحد علماء الكيمياء إلا أنه كتب رسالة علمية قيمة جدا وعلي درجة كبيرة من الأهمية تحدث فيها بالتفصيل عن الكتابة الهيروغليفية وتمكن لأول مرة أن يعطينا صفحات فيها ترجمة للحروف الهيروغليفية ولم يكتف بذلك بل توصل إلي ما يعرف في اللغة بالقيمة الصوتية للحروف وذكرها كما تمكن من إدراك أن بعض هذه الأشكال ما أسماه بالمخصصات وهي عبارة عن أشكال تضاف إلي الحروف لتوضح معني وتوضع بعد نهاية الكلمة وهذا اللفظ مخصصات يتم استخدامه في التعبير عن الكتابة الفرعونية حتي الآن وهذا إنجاز علمي غير مسبوق وهو أول عالم في التاريخ يصل إلي هذا الاكتشاف .

والشيء الجميل أن العالم الكبير ذكر في أحد كتبه أنه من أراد التوسع في موضوع الدراسات اللغوية فليرجع إلي كتاب حل الرموز للعالم الفقيه جابر بن حيان الصوفي والمعروف بأنه مؤسس علم الكيمياء والجبر ولكن ما يهمني كباحث في اللغة أن أذكر أن جابر بن حيان زار مصر وتحدث عن معبد دندرة وزيارته للكريبت (السرداب) المشهور تحت المعبد عن تعليمه وتلقيه العلم في دندرة وهو ما ذكره ابن وحشية في كتابه المفقود ويؤكد فيه أن ابن حيان زار المعبد وتلقي العلم فيه .

والجدير بالذكر في هذا المجال أن العلماء العرب كانوا يحرصون علي دراسة اللغات الأخري خاصة اللغة اليونانية والفارسية والتركية والقبطية ورغم علمهم بأن العلوم اليونانية ترجمت إلي العربية والسريانية إلا أنهم حرصوا علي معرفة اللغة اليونانية وكثير من العلماء تخصصوا فيها مثل : الكندي ،والفارابي ،والبيروني الذي كان يجيد اليوناني ،والفارسي ،والتركي ،وسنسكريت وهي لغة الهند القديمة وله كتاب مشهور في وصف الهند .

ولوجود كثير من الكتابات المصرية القديمة كتبت في العصر المتأخر بالديموطيقي وأحيانا تجد نفس النص مترجما بالقبطي أو اليوناني كما هو الحال في المسلة الناقصة التي كانت في معابد فيلة التي اقتطعها بانكس عالم الآثار وموجودة حاليا في دوبست بانجلترا وعليها نصوص لأربع لغات وكذلك تمثال داريوس أيضا باللغات الأربعة ولدينا عشرات القطع عليها نصوص بأكثر من لغة كما هو الحال مع حجر رشيد ولأن العلماء العرب كانوا علي دراية باليونانية والقبطية فقد استطاعوا أن يتعرفوا بسهولة علي اللغة المجهولة سواء أكانت ديموطيقية أم هيروغليفية .

سألت الدكتور عكاشة تري ما هو دور شامبليون وإنجازه العلمي المنسوب إليه؟ فأجابني بقوله إن الإنجاز العلمي لشامبليون إنجاز عظيم جدا ونحن مدينون بكل

الفضل له فهو كثير وليس في اللغة فقط بل له دراسات أخري كثيرة ولكن ما أود ذكره أن شامبليون ليس أول من فك رموز اللغة المصرية القديمة ولكنه أول أوربي ينجح في ذلك وقد سبقه العرب وهو ما أكدته من خلال بعض المخطوطات التي عثرت عليها وحققتها من خلال رسالتي العلمية التي تناولت من خلالها عدة مئات من المخطوطات ولكن يوجد هناك عدة آلاف من المخطوطات لم أدرسها ولم أعثر عليها ولدي إحساس كبير أن الذي استطاع أن يقرأ الكتابة المصرية لابد أن يكون قد توصل لحقيقة حروفها .

وأكد الدكتور عكاشة الدالي أن مصر كانت مصدر إشعاع فكري وعلمي وأدبي لأوربا في العصور الوسطي وأن الدارسين العرب واليونانيين كانوا يترددون علي معابدها وأديرتها للنهل من علومها حتي هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا حيث يقول: مصر بلد الأطباء أحكم بلاد العالم .

وقال د. عكاشة إن دراسة المخطوطات دراسة صعبة تحتاج إلي جهد ومال كبيرين وعلينا أن نهتم بإزالة التراب عن كنوزنا العلمية المهملة والتي لا تزال هذه المخطوطات مختفية في مكتبات العالم المختلفة ولا يعرف عنها أهلها إلا أقل القليل وذلك يتطلب الكثير من الجهد كما أنني أري ضرورة ترشيد خروج البعثات العلمية لدراسة الآثار بالخارج فنحن بلد الآثار والحضارة والطالب الأجنبي يأتي إلي مصر لدراسة الآثار فلماذا نخرج نحن للخارج وعندنا كل هذه الكنوز.. نحن ينقصنا مكتبات علمية قيمة في مجال الآثار ومناهج بحث ترقي للمستوي الذي يتوافق مع ما يقوم به العالم كله من بحوث ودراسات ولا أحد ينكر أن لدينا علماء علي مستوي عظيم جداً من العلم والمشكلة أن الطلبة الدارسين للدكتوراة يختارون موضوعات صغيرة وبسيطة لا تحتاج إلي التمحص والتدقيق. ويتفق في هذا المجال الأثري أسامة طنطاوي الذي يطالب الدارسين بحسن اختيار موضوعات الماجستير والدكتوراة حتي يضاف جديد

إلي المكتبة العربية والإسلامية بدلاً من اختيار موضوعات متكررة وتضيع سنوات الدراسة هباء .

ونحن إن كنا نشكر للدكتور عكاشة دراساته المصرية القديمة ، ودفاعه عن العلماء المسلمين الذين سعوا إلى فك رموز اللغة المصرية القديمة ، فكثير مما جاء في مقاله يحتاج إلى مزيد من الدراسة ، والبحث ؛ لأن دعواه بمعرفة المسلمين قبل شامبليون باللغة المصرية القديمة ، وقراءتهم الوثائق المصرية القديمة دعوى تفتقر إلى الأدلة والبرهان ، ولكن لا يعني هذا أن ننكر على بعض العلماء العرب سعيهم لدراسة الحضارة المصرية القديمة ، وفك رموز لغتها .

ولم يكن للحركة العلمية في – إبان مجد المسلمين – أن تزدهر إلا إذا كان وراءها تشجيع من الخلفاء ، وولاة الأمر فقد " فتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافس الخلفاء والحكام في رعاية العلم والعلماء وتسابقوا في الإنفاق في سخاء على العلم والعلماء ، وقبل الرشيد الجزية كتبا ، كما دفع المأمون وزن ما ترجم ذهباً ، وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ، ومنازل العلماء ودور كتب المساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض ، وجاء وقت كان كل طالب علم يجد معهدا يتعلم فيه ، ومعلما يقوم على تعليمه ، وراتباً يقوم بأوده ، وكان الجامع المنصور في بغداد ، والجامع الأموي في دمشق ، والجماع الأزهر في القاهرة ، وجامع القيروان بتونس ، وجماع القرويين في فاس ، وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير بصنعاء إلى جانب بيت الحكمة في بغداد، ودار العلم في الموصل ، ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، كانت في رعاية الخلفاء الحكام من أمثال المأمون ونظام الملك ونور الدين محمود زنكي والحاكم بأمر الله وصلاح الدين الأيوبي ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء .

وفي هذه البيئة العلمية الصالحة ، وفي هذا الجو العلمي الحافل ، نشأ عدد من العلماء يقرنون إلى أعاظم العلماء في كل عصر وأوان ، وكانت العربية لغة العلم يكتب بها العلماء ليقرأ الناس في أي صقع من أصقاع الوطن العربي الإسلامي ، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية ، نقلوا علوما وابتكروا أخرى وأضافوا كثيرا من الآراء والنظريات التي نسبت إلى غيرهم " (١)

وبناء على مسبق يتبين لنا الأسس التي بنيت عليها الحضارة الإسلامية وهي كالتالي : أسباب تعود إلى الإسلام نفسه ، وأسباب تعود إلى المسلمين .

١- دين قويم عمل على توحيد العرب والمسلمين ، ونزع من نفوسهم أدران الشرك والعصبية الجاهلية ، والسمات السلبية .

٢- دعوة الإسلام إلى التفكير والإبداع وإعمال العقل ، ذم التقليد والتكرار واتباع الهوى .

٣- دعوة الإسلام للتفكر في الآفاق وفي النفس ،وهما مجال البحث العلمي الحديث.

٤- دعوة الإسلام لدراسة سير الأمم السالفة واستخلاص العبرة منها .

٥- ربط الإيمان بالعمل الصالح الذي يعني كل عمل يعود بالنفع على الإنسان أو غيره سواء أكان دينيّاً أو دنيويّاً .

٦- الانفتاح على الحضارات الأخرى وترجمة علومها ومعارفها وفنونها إلى العربية .

٧- تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء ، والصرف عليهما بسخاء .

٨- علو منزلة العلماء بين الناس بفضل تعاليم الدين الإسلامي الذي رفع درجتهم ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، وجعل تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

٩- إنشاء المدارس والجامعات والمكتبات ودور العلم وجعلها جميعا بالمجان لطلاب العلم المعرفة .

---

(١) د. عبد الحليم منتصر " أثر الرب والإسلام في النهضة الأوربية " الهيئة العامة للكتاب ص ١٨٤-١٨٥

١٠- الإنفاق على طلاب العلم وتأمين معاشهم ، وإتاحة حرية السفر لهم.

١١- عدم الحجر على آراء العلماء ، وفتح باب الاجتهاد أمامهم واسعا .

١٢- أدب الاختلاف ،ومقارعة الحجة بالحجة ، وعدم الاحتكام للعنف في نشر العلم.

أسباب ضعف الحضارة الإسلامية

لقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى تراجع الحضارة الإسلامية وضعفها وعلى رأس تلك العوامل الاحتلال العثماني . فمنذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحا للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفا من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقا لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعية وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أما ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصاديا . " (١)

وإن المرء ليأخذه العجب من بعض الكتاب المسلمين الذين يطلقون على الاحتلال العثماني الأجنبي اسم " الفتح العثماني " !! كما يطلقون على الحكم العسكري العثماني المستبد " الخلافة العثمانية " فكأن البلاد العربية كانت بلاد كفر وإلحاد فجاء العثمانيون ففتحوها ونشروا فيها الإسلام !!

وهم بذلك يسوون بين الفتوحات التي قام بها صحابة رسول الله لتحرير الشعوب من قبضة الاحتلال الأجنبي الغاشم (الفرس والروم) وبين هذا الاحتلال الأجنبي

(1) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

العثماني الغاشم ، كما يسوون بين الأخلاق الإسلامية النبيلة التي اتصف بها صحابة رسول الله وبين الأخلاق اللا إنسانية التي اتصفت بها الطغمة العسكرية العثمانية المستبدة كما يدنسون اسم الخلافة الإسلامية الراشدة بإطلاقه على هذا الحكم العسكري المستبد ، والمثير للدهشة أن مبررات هؤلاء الكتاب الذين يدافعون عن الإمبراطورية العثمانية وحجتهم الرئيسة هي أن العثمانيين هم الذين حموا بلاد الإسلام من الدول الأوربية بلاد الكفرة !! ونسي هؤلاء – أو تناسوا – أن الحروب الصليبية هي التي أيقظت روح الجهاد الإسلامي ووحدت الأمة بعد فترة من التمزق وقضت على الخلافة الفاطمية الشيعية وأعادت مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية السنية ، ونسي هؤلاء أن هذه الحروب هي التي ولدت أعظم من حكم وعدل وقاد وانتصر – بعد الخلفاء الراشدين – نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي .

فلو أن الغزو العثماني العسكري الغاشم لم يحط على أمة العربية الإسلامية كقطع الليل المظلم لاستمرت النهضة الإسلامية ولما غرقت البلاد الإسلامية في بحر الظلمات .

لقد استغلَّ العثمانيون اسم الخلافة الإسلامية التي يعلمون مدى تأثيرها في نفوس المسلمين الذين كانت العاطفة الدينية لديهم أقوى من أي رابطة أخرى ليقضوا بها على حضارة الإسلام ويحبطوا بها كل حركة تحرر " كان الحكم العثماني سيئا فهو حكم أجنبي جامد متخلف أسدل على الشرق العربي أستارا من التخلف والتأخر في كافة المجالات ونواحي النشاط ، ومع ذلك فإن العرب في المنطقة لم يحاولوا الانتفاض عليه ويرجع ذلك إلى الرابطة الدينية التي ربطت العرب بالعثمانيين فإن بلاد المسلمين كانت تعتبر دولة واحدة يطلق عليها (دار الإسلام) ولما كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية حملت لواء الحرب أول ما حملت على الدول الأوربية (بلاد الكفر) ، وكانت العاطفة الدينية في تلك القرون من أقوى الروابط ، وكانت العاطفتان الدينية والوطنية

ممتزجتين بحيث كان من الصعب الفصل بينهما ، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الإسلام وإلى ما بعد قيام الحرب العالمية الأولى وفي مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ظل هذا الرباط يشد جماهير كثيفة من العرب إلى الخلافة الإسلامية " (١)

لقد كان العثمانيون السبب ليس فقط في تخلف الأمة الإسلامية بل كانوا السبب أيضا في وقوعها في براثن الاحتلال الأجنبي : الإنجليزي والفرنسي والإيطالي لسنوات طويلة مما صيِّر الأمة الإسلامية إلى هذا الوضع المهين في الوقت الراهن

أليس التخلف الحضاري والعزلة اللذان فرضهما العثمانيون على البلاد كانا هما السبب في الاحتلال الفرنسي .

والحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد الإسلام وصانعة حضارته ، وإن كان في العثمانيين خيرٌ لكانوا تعاونوا مع إخوانهم المسلمين في إقالة عثرتهم ومواصلة نهضتهم إما الذي حدث فكان استعماراً بغيضاً استعبد الشعوب واستغل مواردها وجردها من عوامل نهضتها فأول شيء عمله السلطان سليم الأول أبطل النقود العربية القديمة " وضرب نقوداً جديدة تحمل اسمه ولكنها كانت أخف من القديمة بمقدار الثلث فخسر الناس في ذلك ثلث أموالهم " (٢)

أهذا هو الفتح العثماني ؟! أهذه هي الخلافة الإسلامية ؟!

ولم يكتف بذلك بل أصدر أمره " بترحيل طوائف من أعيان الناس ، ما بين قضاة ونواب قضاة وأكابر من المسلمين والمسيحيين واليهود والتجار والوراقين إلى اسطنبول ليقيموا بها إقامة جبرية ، ليكونوا أشبه بالرهائن من ناحية ، لكي يألفوا الحياة العثمانية في عاصمة الدولة " (٣)

(1) د . محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣٤ ، ٣٥ .
(2) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " الجزء الثالث مرجع سابق ص ٨١٦
(3) نفسه ص ٨١٦

أ ليس ذلك سببا كالسبي البابلي والآشوري والروماني ، ولم يكتف سليم الأول بذلك بل عمل على تجريد المسلمين من خيرة علمائها وعمالها " وكان من بين الذي قضى السلطان سليم بتسفيرهم إلى اسطنبول عدد كبير من أرباب الصنائع المهندسين والبناءين والنجارين والمرخمين والمبلطين ، وطائفة من الفعلة ، وقيل في تعليل هذه الهجرة الإجبارية لأصحاب الحرف ، أن السلطان سليم أراد أن ينشئوا له مدرسة في اسطنبول مثل مدرسة الغوري . وأيا كان الغرض من جمعهم وتسفيرهم ، فقد ترتب على هذه العملية تعطيل خمسين صناعة على ما يقول ابن إياس " (١)

وكانت مصر خلال هذا العهد ترزح تحت الحكم العثماني المباشر ، وكان السلطان هو الذي ينصب الباشا ، أما خزانة مصر فكانت مرتبطة بخزانة السلطنة مباشرة . وبالجملة إن مصر لم تكن تتمتع تحت حكم العثمانيين بالاستقرار من جراء ما كان ينشب فيها بين القوى الثلاثة من فتن . كما أن الباشاوات أنفسهم لم يكونوا مطمئني النفوس على بقائهم في الحكم لأن أمر تثبيتهم أو نقلهم كان يرجع إلى قدر ما لكل من سند بين حاشية السلطان . فكان هم الباشا جمع المال لرشوة هذه الحاشية للبقاء في الحكم مدة أطول مما أضر بمصالح البلاد والعباد إضرارا بالغا . وقد بلغ عدد هؤلاء الباشاوات ٧٦ واليا في حقبة قدرها ١٩٠ سنة فقط .

هذا وكانت ولاية مصر خلال هذا العهد عوناً للسلطان عند كل أزمة ، وكثيراً ما سيَّرت مصر الحملات إلى الأقطار التي تثور على السلطنة كاليمن وسوريا والحركة المهدية في المملكة العربية السعودية ؛ وكثيراً ما جنِدت النجدات مساعدة للدولة على للدولة على أعدائها ، كما فعلت في حرب فارس .

لقد قام الاحتلال العثماني بأعمال دمرت فيها الحضارة الإسلامية ، وقضت على الأمة العربية منها :

(1) نفسه ص ٨١٧

١- إغلاق المدارس فانشر الجهل .

٢- ترحيل العلماء البارزين ، والصناع المهرة ، والفنانين المبدعين من بلادهم العربية ، وتوطينهم في استانبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية لكي يبنوا لهم فيها حضارة للدولة العثمانية التي كانت تتسم بالقوة وتفتقر إلى الحضارة والعلم .

٣- استنزاف الموارد الاقتصادية ، وحرمان بلاد المسلمين منها .

٤- العمل على القضاء على اللغة العربية لغة الإسلام وحضارته ، لحساب اللغة التركية ، وهو ما عرف بالتتريك : أي جعل اللغة التركية لغة رسمية للبلاد الإسلامية الخاضعة للحكم العثماني.

٥- إطلاق أيدي ولاتهم في البلاد العربية في أموال الناس يتخوضون فيها بالسلب والنهب . مما تترتب على ذلك انتشار الفوضى والفزع وعدم الاستقرار .

١٠- استبداد الحكام ، واستخدام العنف في مقاومة معارضيهم .

لهذه الأسباب وغيرها غرق العرب والمسلمون في مستنقع التخلف والجهل ، وأصبحوا صيدا سهلا لبلاد أوربا الناهضة .

***